السفير الصيني الأسبق في اليمن شي يان تشون في مذكراته (أيام لا تنسى) :

بعد تدهور الوضع أيام حصار صنعاء انسحبت جميع الهيئات الدبلوماسية العربية والأجنبية إلا السفارة الصينية وشخصا من السفارة السورية

التحقت بوزارة الخارجية الصينية في عام 1965 بعد تخرجي في الجامعة وسافرت إلى جامعة القاهرة في نفس السنة لتعميق دراسة اللغة العربية مبعوثا من وزارة الخارجية الصينية. ورجعت من القاهرة إلى بكين في ربيع عام 1967، وفي صيف هذا العام قررت وزارة الخارجية الصينية أن ترسلني إلى السفارة الصينية في صنعاء وطلبت مني أن أسافر بأسرع وقت ممكن نظرا للتطورات السريعة للوضع اليمني حينذاك، فأسرعت بالاستعدادات الضرورية ووصلت إلى صنعاء في شهر سبتمبر عام 1967م.

تتردد بين حين وآخر في مخيلتي صور لأيام شاركت فيها أبناء الشعب اليمني الصديق أحداثا هي بالنسبة لي أيام لا تنسى

بدأت العمل فور وصولي إلى السفارة ووجدت أن الوضع في اليمن آخذ في التدهور يوما بعد يوم. في بداية ستينات القرن الماضي كان حكم المملكة المتوكلية بدأ يتداعى مع مرور الأيام، حتى سقط هذا الحكم الكهنوتي في يوم26 سبتمبر عام 1962م بقيام الثورة اليمنية وولادة الجمهورية العربية اليمنية، وأصبح العقيد (المشير فيما بعد) عبد الله السلال أول رئيس للجمهورية. وظل المشير يعمل على إنجاز مهامه بكل جد ولكنه واجه صعوبات متراكمة، وصعب عليه أن يسيطر على الوضع نظرا لضآلة القوات المسلحة التي امتلكها وضخامة القوى المعارضة التي واجهها فاضطر إلى طلب الدعم الخارجي. وافق الرئيس جمال عبدالناصر على هذا الطلب وقرر أن يرسل 70 ألفا من قوات الجيش المصري إلى اليمن لمساعدة المشير في تثبيت الحكم الجمهوري في اليمن.

لكن الرئيس جمال عبد الناصر قرر سحب كافة القوات المصرية من اليمن في خريف عام 1967م نتيجة هزيمة مصر في الحرب الثالثة في الشرق الأوسط ماضاعف خطورة الوضع في اليمن حيث واجه المشير عبد الله السلال أزمة حكم بسبب ضآلة الجيش النظامي وتردي تسليحه وزيادة الخلافات في صفوف الحكم الجمهوري وقد سعى المشير بكل السبل إلى إنقاذ الوضع بما في ذلك طلب العون والدعم من الخارج فاستقبل القائم بأعمال السفارة الصينية بصنعاء وحضرت هذا اللقاء وأتذكر بوضوح أن المشير قدر كل التقدير الصداقة اليمنية الصينية وركز على شرح تطورات الوضع في اليمن وطلب من الصين الدعم والعون. عندما خرجنا من منزل المشير السلال ذلك المساء من شهر سبتمبر زاد إحساسنا بتفاقم خطورة الوضع اليمني. قرر المشير أن يقوم بزيارات إلى الخارج من أجل الحصول على مزيد من الدعم الخارجي، وعندما وصل إلى العراق وقع انقلاب في يوم 5 نوفمبر عام 1967م مما أدى إلى تجريده من جميع المناصب، وتولى القاضي عبدالرحمن الأرياني منصب رئيس المجلس الجمهوري وعين الأستاذ محسن العيني رئيسا للوزراء وأصبح الفريق حسن العمري قائدا عاما للقوات المسلحة وأعلن الحكم الجديد تمسكه بمبادئ ثورة 26 سبتمبر وعزمه الدفاع عن النظام الجمهوري.

ظلت القوى الملكية تعد عدتها لتزحف إلى صنعاء في محاولة للإطاحة بالنظام الجمهوري وإعادة الحكم الملكي وجمعت أكثر من أربعين ألفا من المسلحين والمرتزقة و احتلت مناطق كبيرة وقطعت طريق الحديدة – صنعاء ثم تقدمت إلى صنعاء وحاصرت صنعاء من الغرب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي ابتداء من يوم 28 نوفمبر عام 1967م وبدأت القوى المعارضة الهجوم على صنعاء. رأينا القنابل تتساقط يوميا في المدينة وسمعنا أزيز الرصاص بين حين و آخر. وأصبحت صنعاء في خطر وأصبح الحكم الجمهوري في خطر وفي هذه اللحظة الحاسمة صدر قرار جمهوري بتعيين الفريق العمري رئيسا للوزراء مع بقائه في منصب القائد العام للقوات المسلحة. وكافحت القوات المسلحة وقوات الأمن بكل صلابة وبسالة، وصمد الشعب بكل فئاته من العمال والفلاحين والموظفين والمثقفين والطلبة والتجار الذين كونوا المقاومة الشعبية ووقفوا جميعا من المدنيين أو العسكريين، وقفة الأبطال وأظهروا روحا معنوية كفاحية عالية.

مع تدهور الوضع في أيام حصار صنعاء انسحبت جميع الهيئات الدبلوماسية العربية والأجنبية من صنعاء إلا السفارة الصينية وشخصاً واحداً من السفارة السورية؛ كانت مهمته الرئيسة الإشراف على مجموعة من الطيارين السوريين الذين ساعدوا القوات المسلحة اليمنية في القتال. في تلك اللحظة الحاسمة أعلنت الحكومة الصينية بكل وضوح أن الصين حكومة وشعبا تؤيد اليمن حكومة وشعبا بكل حزم وثبات في نضاله العادل لحماية سيادة الدولة والاستقلال الوطني وفي سبيل مقاومة الأعمال العدوانية والهدامة التي يقوم بها الاستعمار. وتنفيذا لتوجيهات الحكومة الصينية بقيت السفارة الصينية في صنعاء مع كافة المهندسين والعمال والأطباء الصينيين الذين كانوا يعملون لمساعدة اليمن. برغم خطورة الموقف إلا أننا تشرفنا بأداء هذه الرسالة السامية وعقدنا العزم على أن نقف إلى جانب الشعب اليمني ونشاركهم في السراء والضراء وكنا على أهبة الاستعداد لمواجهة كل المصاعب والأخطار حتى التضحية بالنفس.

كان طاقم السفارة الصينية صغيرا في أيام حصار صنعاء وكنت الشخص الوحيد الذي يجيد اللغة العربية وبطبيعة الحال وجب علي أن أضطلع بأعمال كثيرة فشاركت في كل أعمال الاتصال بالدوائر الحكومية ووحدات القوات المسلحة والمنظمات الجماهيرية والشخصيات من مختلف الأوساط كما تحملت بعض الأعمال للاتصال بالأطباء والمهندسين والعمال الصينيين العاملين في اليمن. كنت أعمل ليلا ونهارا وأعمل كل يوم 12-14 ساعة على الأقل وفي بعض الأحيان واظبت على العمل طوال 14 ساعة. كانت الحياة في صنعاء شاقة وكانت الإمدادات التموينية صعبة للغاية، فطوال أشهر لم نتمكن من الحصول على الخضار والفواكه بل وجدنا صعوبة في الحصول على الأرز والدقيق. وفي هذه الحالة كنا دائما نلجأ إلى وزير الاقتصاد، فكنت أكتب مذكرة كل شهر وأذهب إليه لإصدار التوجيهات مع توقيعه الشخصي. ووجدت رعاية خاصة منه إذ حصلت على امتياز كل مرة لأن وزير الاقتصاد كان يصرف لي دائما الكمية المطلوبة من الأرز والدقيق.

أقول دائما إني معجب ببطولات وتضحيات الأصدقاء اليمنيين إذ عرفت أن الرئيس علي عبد الله صالح كان يكافح معنا في أيام حصار صنعاء وسجل بطولات وأمجاداً في الدفاع عن الثورة اليمنية والنظام الجمهوري. وبحكم أعمالي وعلاقاتي تعرفت على شخصيات مرموقة عزيزة وعديدة مثل القاضي عبدالرحمن الأرياني، رئيس المجلس الجمهوري الأسبق والقاضي عبد السلام صبرة، نائب رئيس الوزراء الأسبق والأستاذ محسن العيني، رئيس الوزراء الأسبق والفريق حسن العمري رئيس الوزراء والقائد العام الأسبق للقوات المسلحة والشيخ عبد الله بن حسين الأحمر، رئيس مجلس النواب وسيادة عبد العزيز عبدالغني، رئيس الوزراء الذي شغل مناصب وزير الاقتصاد ووزير الصحة ومحافظ البنك المركزي على التوالي في ذلك الوقت والدكتور محمد سعيد العطار، نائب رئيس الوزراء الذي كان وزير الاقتصاد في أيام حصار صنعاء والعقيد حسين المسوري، أمين العاصمة الذي كان في قيادة القوات المسلحة والأستاذ محمد الزرقة، رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير صحيفة (الثورة) والدكتور حسن مكي، الذي كان وزيرا للخارجية والعقيد أحمد الرحومي، رئيس هيئة أركان الحرب والأستاذ أحمد محمد نعمان، الذي كان عضو المجلس الجمهوري والعميد مجاهد أبو شوارب، مستشار رئيس الجمهورية الذي كان قائد القوات الشعبية والمهندس عبد الله الكرشمي، الذي كان وزير الإنشاءات والأستاذ محمد الجنيد، الذي كان وزير الزراعة كما تعرفت على مجموعة كبيرة من الضباط الكبار في القوات المسلحة وقوات الأمن مثل الرئيس الأسبق إبراهيم الحمدي، والرئيس الأسبق أحمد الغشمي، والعميد حسين الدفعي، وحمود بيدر ومحمد الأرياني ومحمد الخاوي وعبد الله الراعي ونعمان المسعودي وجار الله ضيف الله وعلي أبو الحوم وعبد الله الحيمي وعبد الله الحمدي الخ كما عرفت العميد درهم نعمان، رئيس المنطقة الحرة في عدن والعقيد أحمد علي محسن، محافظ محافظة أبين والعقيد محمد طريق، مدير أمن عدن وغيرهم من المسؤولين الكبار الذين كانوا يحاربون في الجبهة الأمامية في

أيام حصار صنعاء .كلما التقيت بالأصدقاء القدامى وتذكرنا تلك الأيام العصيبة التي قضيناها سويا أثناء حصار صنعاء، قلنا دائما إننا كنا نكافح في خندق واحد ويعكس هذا الكلام الحقائق الواقعية. إنهم كافحوا في مواقعهم وكافحت في موقعي وكانت هذه المواقع والجبهات منسجمة مع بعضها.

كان مقر السفارة الصينية يقع في شارع الزبيري على بعد كيلومتر واحد فقط عن المطار المدني جنوب صنعاء، كنت أسمع يوميا أصوات انفجارات القنابل وأزيز الرشاشات ودوي المدافع. وفي يوم من الأيام سمعت دويا قويا جدا كاد يصيبني بالطرش وشعرت باهتزاز المكتب ووجدت أن زجاج النوافذ قد انشطر بشظايا القنابل، ثم خرجت من المكتب بعد أن هدأت الأمور ورأيت شظايا القنابل في فناء السفارة وعدة حفر جديدة على بعد 100 متر من مبنى السفارة نتيجة انفجارات القنابل.

ذات يوم جلست في المكتب لكتابة مذكرة وسمعت فجأة الدوي القوي والأزيز المتواصل، كانت معركة عنيفة وقعت قرب السفارة الصينية، فتركت العمل وصعدت فورا إلى سطح المبنى لمراقبة الأمور.في تلك اللحظة سمعت أزيز الرصاص، فانحنيت بسرعة وكان أن وقعت طلقة بجانبي على بعد نصف متر فقط، فانتقلت إلى جهة أخرى لمواصلة المراقبة تحت طي التستر وعرفت أن معركة حدثت فعلا قرب السفارة الصينية ونجح الجيش الجمهوري في إفشال هجوم الملكيين.

ذات صباح اندلعت معركة عنيفة عمت معظم أنحاء المدينة حتى أصبح الشارع الذي تقع فيه السفارة الصينية ميدانا للمعركة، رأيت عدة دبابات ومدرعات واقفة أمام السفارة وتطلق قذائف ووجدت فجأة أن الفريق حسن العمري كان في إحدى الدبابات يقود المعركة شخصيا وأعجبت بهذه البطولة وأحسست بخطورة الموقف. بعد المعركة خرجت إلى الشارع والتقطت بعض أغلفة المدافع للذكرى وقد بقي واحد من هذه الأغلفة في السفارة حتى بداية الثمانينات.

قبل انسحاب السفارة العراقية من صنعاء بأيام، اتصلت بالقائم بالأعمال العراقي لزيارته للتوديع، ووصلت مع زميل آخر إلى مكتبه حسب الموعد المحدد وانتظرنا الصديق العراقي عند الباب ورحب بنا ولكنه اقترح علينا أن نتوجه فورا إلى فندق المخا إذ قال إن السفارة العراقية تعرضت لقصف قذائف المدافع عدة مرات نظرا لأنها تقع قرب القصر الجمهوري الذي كان يعتبر أحد الأهداف الرئيسية لقصف مدافع القوى الملكية. فقبلنا هذا الاقتراح وبعد مغادرتنا بخمس دقائق فقط تعرضت السفارة العراقية فعلا للقصف الأمر الذي أدى إلى هدم أجزاء كبيرة من السفارة العراقية بشكل فظيع. وعندما وصلنا إلى فندق المخا أقبل الأصدقاء إلينا وقدموا التهانئ لنجاتنا من الموت المحدق.

في فترة من الفترات، عاشت صنعاء ولا أحد من ساكنيها يعرف متى ستندلع المعركة وفي أي ساعة ستسقط القنابل. لقد تعودت على هذه الحياة وكنت أخرج كل يوم لإتمام أعمالي وواظب الخبراء والأطباء الصينيون على العمل في مواقعهم، كنا على اتصال وزرناهم كثيرا لتفقد أحوالهم ومساعدتهم على تذليل الصعوبات.يقع مصنع الغزل والنسيج الذي ساعدت الصين في بنائه في شمال شرق صنعاء وكان الخبراء الصينيون لبعثة الغزل والنسيج وبعثة الطرق وبعثة حفر الآبار يسكنون بجوار المصنع. وفي أثناء حصار صنعاء، رابطت إحدى وحدات القوات المسلحة اليمنية في معسكر قرب المصنع. ولكن الخبراء الصينيين والعساكر اليمنيين كانوا يتعرضون يوميا لقصف مدافع القوى الملكية التي احتلت الجبل المطل على مصنع الغزل والنسيج والمعسكر. وكانت هذه القوات الملكية تقوم بأعمال تجسس وتخريب باستمرار مما ألحق خسائر جسيمة بالخبراء الصينيين والمعسكر اليمني. برغم ذلك، ظل الخبراء الصينيون يعملون كالعادة واهتدوا إلى الوسائل المختلفة لحماية أرواحهم وممتلكات المشاريع.

حاولت القوات الملكية في بداية الأمر إجبار الخبراء الصينيين على الفرار لكنهم فشلوا فتحولت إلى أسلوب التصفية الجسدية. وأرسلت عددا من الجواسيس إلى مصنع الغزل والنسيج للحصول على المعلومات الدقيقة عن الخبراء الصينيين مثل شخصياتهم وأوقات عملهم ومساكنهم ومطعمهم الخ. بعد توفر هذه المعلومات بدأت القوى المعارضة تنفذ خطتها الخبيثة لإبادة الخبراء الصينيين. ذات يوم ركزت القوى المعارضة على قصف مطعم الخبراء الصينيين في وقت الغداء واستمر هذا القصف أكثر من نصف ساعة مما أدى إلى تدمير كل شيء في المطعم وتصورت القوى المعارضة أن جميع الخبراء الصينيين في المطعم قد ماتوا جميعا ولكن هذه المحاولة اليائسة باءت بالفشل مرة أخرى إذ أن رئيس بعثة الخبراء الصينيين قرر أن يدعو جميع أفراد طاقمه لاجتماع طارئ في المقر السكني قبل الغداء، فنجا عشرات من الخبراء الصينيين بفعل هذا الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه رئيس الخبراء بهذا القرار المفاجئ.

تعرض طاقم السفارة الصينية للمخاطر غير مرة أثناء زيارة الخبراء الصينيين. ذات مرة وصلت مع زميلي إلى مسكن خبراء الطرق الصينيين و بعد وصولنا بدقائق تساقطت قنابل المدافع وظلت تتساقط لأكثر من نصف ساعة وبقينا في داخل المبنى لمتابعة تطورات الموقف حتى هدأت الأمور وباركنا لأنفسنا النجاة ولكن وجدنا أن سيارتنا تحطمت كليا ودمرت المعدات والأجهزة لمشروع الطرق. و مرة أخرى ذهب القائم بأعمال السفارة الصينية إلى نفس الموقع لتحري أحوال الخبراء الصينيين وإصدار بعض التوجيهات إليهم. يبدو أن القوى الملكية عرفت هذا الخبر فركزت على قصف هذا المبنى واستمر القصف لمدة ثلاث ساعات متواصلة وتخرب المبنى بشكل فظيع ونجا القائم بالأعمال بيد أن رئيس الخبراء الصينيين أصيب ببعض شظايا المدافع التي اخترقت أبواب ونوافذ المبنى. وأثناء هذا القصف كنت في السفارة وفور أن عرفت واقع الأمر أسرعت إلى المستشفى وأخذت بعض الأطباء الصينيين وأسرعنا إلى موقع الحادث كإجراء احتياطي للإنقاذ خشية من العواقب الوخيمة لهذا القصف البربري. وبعد توقف القصف وجدنا أن جميع الصينيين نجوا سالمين إلا رئيس الخبراء الذي جرح بإصابة غير خطيرة.

عندما نتذكر ملحمة معارك الدفاع عن صنعاء يلزمنا أن نذكر مآثر الأطباء الصينيين. قبل حصار صنعاء، توزع معظم الأطباء الصينيين خارج صنعاء. مع تأزم الموقف في صنعاء انسحب جميع الأطباء الأجانب من مستشفيات صنعاء ما عدا ثلاثة أطباء صينيين وبرغم أنهم كانوا يعملون ليلا ونهارا إلا أن عددهم كان محدودا جدا والمتطلبات متزايدة باستمرار. فاستدعى الفريق حسن العمري رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة حينذاك القائم بأعمال السفارة الصينية وقدم بواسطته طلبا إلى الرئيس ماو تسي تونغ ورئيس مجلس الدولة شو آن لاي لإرسال مزيد من الأطباء الصينيين إلى صنعاء بأسرع وقت ممكن. وعندما وصل التقرير إلى شو آن لاي أصدر فورا أوامره إلى مستشفى بكين لتكوين بعثة طبية وإرسالها إلى صنعاء بأسرع وقت ممكن. وتكونت هذه البعثة الطبية بسرعة مدهشة ووصلت من القاهرة بالطائرة إلى أجواء صنعاء وحاولت الطائرة أن تهبط عدة مرات ولم تنجح، فاضطرت إلىأن تحلق وقتا طويلا لانتظار فرصة الهبوط ونجح قائد الطائرة الشجاع والماهر في الهبوط أخيرا. وباشر الأطباء الصينيون أعمالهم الإنسانية من يوم وصولهم إلى صنعاء وأدوا رسالتهم السامية برغم الظروف الصعبة والمخاطر الجسيمة والأعمال كثيرة.

العيد الـ (51) لثورة الـ (26) من سبتمبر

القوات المسلحة والأمن مدرسة وطنية وحدوية تختزل خارطة الوطن ومكوناته الجغرافية والاجتماعية